الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: مدخل إلى الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الأولى: الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

لم تكن ولادة الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي من فراغ، بل كان ذلك « نتيجة للسياسة التي فرضتها فرنسا من خلال جعل التعليم يكون بغير اللغة الأصلية ــ العربية ــ ومن ثم وجد الأدباء أنفسهم أمام اختيار واحد هو الكتابة باللغة الفرنسية التي يتقنونها»، وهذا بالتحديد ما أدى إلى الوقوع في ثنايا الازدواجية اللغوية فمن ناحية اللغة العربية لغة البلد الأصلية ومن ناحية أخرى اللغة الأجنبية الفرنسية لغة المستعمر، ولعل الأسباب التي أدت إلى الوقع في مثل هذه المتاهات اللغوية تتمثل في « عدة عوامل من بينها التاريخية والثقافية والاجتماعية خلفتها بالدرجة الأولى المرحلة الإستدمارية التي حاولت طمس الشخصية الوطنية عن طريق محاربة اللغة العربية »، فقد اعتمد المستعمر في ذلك سبلا غير مشروعة وعمل جاهدا على إنكار هوية الشعب الجزائري عبر تدمير وتشويه البنيات الثقافية والاجتماعية والتاريخية، ووقع الجزائري بسبب ذلك في متاهة الفراغ الفكري.

إذا فقد اعتمد المستعمر طرائق مختلفة ليصل إلى مبتغاه فكان من ذلك أن عمل جاهدا على تغيير القواعد والأسس القديمة وتزوير التاريخ وتشويهه، عبر خلق مرتكز فكري جديد يوهم الطرف الآخر بمشروعية الاحتلال كبعث أسطورة الجزائر الرومانية؛ وأهم من روج لهذه الإشاعة نجد خبير الآثار **كافيناك** حيث جعلها مبررا لاستعمار الأرض فهم يعتقدون بأنهم ورثة للإمبراطورية الرومانية، وهم هنا من أجل استعادة الحق الضائع، فاهتم اهتماما كبيرا بالحفريات التي ربما تبرهن للبدو بأن للأوروبيين حقوق قديمة في امتلاك البلاد.

ربما بعد الذي قمنا بطرحه هنا يتجلى لنا هدف آخر من أهداف بعث هذه الأسطورة ألا وهو محاصرة الاسلام وتقليص مداه ومحاولة إدخال الجزائريين في المسيحية عبر الاستلاء على أملاك الوقف الاسلامية وتحويلها إلى كنائس؛ من خلال إحياء فكرة الكنيسة الإفريقية التي أسسها الاحتلال الروماني في شمال إفريقيا.

بعد القضاء على الجانب الديني بقي جانب آخر أو مقوم آخر من مقومات الهوية ألا وهو اللغة، فماذا فعل المستعمر من أجل القضاء على هذا العامل وتدميره؟

لقد صرح الدوق " دو رفيكو " سنة 1832م قائلا : « إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نصنعها هي أن نحل اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل العربية، بحيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت

الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدارسنا »، ولتنفيذ هذا المشروع قامت السلطات الفرنسية بهدم المدارس العربية والمساجد والمدارس القرآنية وهي سياسة اعتمدها الجنرالات أنداك لتجهيل الشعب وإرغامه على تغيير مبادئه التي نشأ وترعرع وفقها، وبالرغم من ذلك إلا أن المدارس القرآنية بقيت تقوم بدورها ووظيفتها التعليمية ولكن في حدود ضيقة جدا، فقد أنشأت مدارس لتعليم اللغة الفرنسية جوبهت بالرفض في بادئ الأمر، لكن مع مرور الوقت وبعد تغلغل الاستعمار بالأراضي الجزائرية وتحوله إلى أمر واقع، راح « الجزائريون يتخلون عن تحفظهم شيئا فشيئا إزاء تعليم اللغة الفرنسية لأبنائهم، فأصبحوا هم الذين يطالبون السلطات ببناء المدارس وبالإنفاق على التعليم، على أن لا يكون ذلك على حساب تعليم اللغة العربية أو بإهمال المساجد »، وربما كان السبب وراء الموافقة على التعليم باللغة الأجنبية هو مسايرة الركب العلمي، ومحاولة خلق نخبة مثقفة تساعد في إيصال هموم الشعب إلى العالم برمته، فتتحول بذلك القضية من وطنية إلى عالمية.

كل تلك العوامل والمحاولات الفرنسية أسهمت في خلق الازدواجية اللغوية وهذا ما أدى إلى ظهور جيل من الكتاب الجزائريين، يكتبون بلسان وقلم أجنبيين للتعبير عن البنيات الروحية والثقافية والاجتماعية المميزة لمجتمعهم الجزائري أي عن سمات وخصائص الهوية الجزائرية، فأصبح بذلك الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ذا بعد إنساني عظيم يعطي الأولية للقضية الوطنية التي تمثل جزءا لا يتجزأ من كيانه، وقد قد كانت هناك مجموعة من الآراء تدور حول هذه القضية – التعبير باللغة الأجنبية – نذكر البعض منها.

مالك حداد هو واحد من أبرز الكتاب الجزائريين الذين تلقوا تعليمهم باللغة الفرنسية، أضطر إلى الكتابة بها من أجل إيصال أفكاره والتحدث عن الواقع الجزائري والثورة الوطنية العظمى، لكنه تخلى عنها بعد الاستقلال مباشرة ومن ذلك نجد قوله : « كما كان على بعض فناني السينما الصامتة أن يختفوا، وأن يتركوا أماكنهم لممثلي السينما الناطقة، فإن على الكتاب الجزائريين الذين ينتمون لجيلي، ولهم تكوين كتكويني، أن يتركوا أماكنهم اليوم أو غدا، في ظرف قصير أو طويل ولكنه أكيد على أية حال للكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة العربية، وأن يقتنعوا بترجمة أعمالهم إلى اللغة العربية في بلدهم، إننا كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية »، إن هذا القرار الصادر عن حداد قد أثار ردود فعل معارضة لدى البعض زملائه.

يقول الأديب الجزائري مراد بوربون :« إن اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصا للفرنسيين، وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة، بل إن أي لغة إنما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الأدبي أو يعبر بها عن حقيقة ذاته القومية »، والكاتب كان قصده من كذلك أن الغاية تبرر الوسيلة فالغرض من الكتابة باللغة الفرنسية هو تحري الواقع الذي يعاني

منه الجزائريون وإيصاله إلى العالم برمته، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار الظرف الخاص الذي كان يعيشه الشعب الجزائري.

ثم تقول الكاتبة آسيا جبار « إن مادة قصصي ذات محتوى عربي، وتأثيري بالحضارة العربية والتربية الاسلامية لا يحد، فأنا إذن أقرب إلى التفكير بالعربية الفصحى مني إلى التفكير بالفرنسية دون إنكار فضل هذه اللغة » ولعل الذي أرادته الروائية من هذا الكلام أن كتاباتها وبالرغم من كونها بلغة أجنبية إلا أنها عربية المضمون أصيلة المنشأ جزائرية إلى أبعد حد، تعمل على بعث الأخلاق الاسلامية وتبتعد عن كل ما هو مربك للفكر الشعوبي، فقط القالب الذي صب فيه هذا المضمون هو قالب فرنسي، ولم يكن ذلك إلا لأسباب قهرية، ومع ذلك ساعدت هذه اللغة الأجنبية الغريبة على نشر صور تولدت من رحم المعاناة الجزائرية.

وغير بعيد عن آسيا جبار نجد مولود معمري يقارب الفكرة التي طرحتها زميلته فيقول: « لا يجب نبكي ونشعر بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فأنا شخصيا إذا كتبت باللغة الفرنسية فإنني لا أشعر بأية عقدة نقص، فالكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو ...إنني أقول: إن هذه فرصة، بل إنها ثروة للثقافة الجزائرية »، والمقصد من كلامه أنه لا استغل فرصة التعليم باللغة الأجنبية ليطرح قضايا شائكة ما كان لغيره أن يدرها بدون العودة إلى تلك اللغة الأجنبية، فهو لا يلوم نفسه لأنه وجد في ذلك فرصة لعرض مشاكل الأمة الجزائرية وإيصالها إلى أبعد حد ممكن.

ومن أعلام الكتابة باللغة الأجنبية نجد كاتب ياسين الذي ينظر إلى « اللغة الفرنسية على أنها أولا وقبل كل شيء وسيلة تعبير، وثانيا على أنها هي أيضا لغة جزائرية، أما الثقافة الفرنسية فلا يمكن لها أن تؤجج فينا الظمأ إلى الحرية والأصالة »، فقط هي صندوق حاو لأعمال عربية مترجمة لآلام هذا الشعب، والمنجزات الأدبية باللغة الأجنبية كان لها الفضل في إيصال قضية الجزائر خارج الحدود المحلية، وهو ما وافق عليه الكاتب محمد ديب حين رد على مالك حداد بعد تصريحه المشهور فقال في ذلك : « إنه بفضل اللغة الفرنسية تجنبنا الوقوع في مخاطر الجهوية ... وإنني كجزائري، لا أحس بأية مأساة في استعمالها، ومن يدعون ذلك إنما يخفون ضعفهم بذلك »، لكن نظرة هذا الأخير قد تبدلت مع مرور الزمن، وأصبح يعايش نفس شعور مالك حداد شعور بالمنفى والاغتراب .

والسؤال المطروح هنا هو: **هوية الأدب هل يحددها أصل الكاتب أم لغة الكتابة؟** خصوصا إذا عرفنا بأن هذه الظاهرة لم تكن مرتبطة بالجزائر فقط، وإنما قد عايشتها مختلف بلدان إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي أو غيره ولكن بنسب مختلفة، حيث توجد اليوم آداب كثيرة كتبت بغير لغة الوطن الأصلية كالإنجليزية والإسبانية والبرتغالية أي بلغات الدول المستعمرة الأوروبية التي شنت حملاتها الاستدمارية على مختلف البلدان من القارات الأخرى.

إن النقاد والدارسين والمهتمين بهذا الأدب المكتوب بلغة أجنبية، قد كانت نظرتهم إلى هوية هذا الأدب جد متباينة فهناك من يعتبره جزائريا مع تميزه بعبارة المكتوب باللغة الأجنبية، وهناك اتجاه يذهب إلى عكس ذلك تماما.

جملة من الآراء المطروحة:

- هناك رأي بعدم إمكانية الأدب المكتوب باللغة الأجنبية جزء من التراث الثقافي العربي، حيث تم جعل الكتاب الجزائريين في صف واحد مع الكتاب الفرنسيين ويستندون في ذلك « إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها، التي تلحق الأدب _ مهما كانت جنسية كاتبه_ بالأمة التي تتكلم اللغة التي كتب بها ذلك الأدب، وتعده من أدبها القومي »
- أما الرأي الثاني فهو مناهض للرأي الأول تماما يمثله الدارسون والمترجمون العرب الذين درسوا هذا الأدب حيث يعتبرونه أدبا جزائريا بكل معنى الكلمة، وقد ركزوا في طرحهم هذا على نفي آراء الاتجاه الأول الذي ركز على عامل اللغة وحدها، واعتبروه تعسفيا فأسقطوه من حساباتهم ليجعلوا منه أدبا عربيا خالصا.
- أما الرأي الثالث فهو وسطي يتحدث عن الروح الجزائرية المكتوبة باللغة الأجنبية؛ حيث قال إبراهيم الكوني: « فهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسية فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوي عن أعمق الأسس الروحية والاجتماعية التي يقوم عليها ماضي الشعب الجزائري وحاضره ».

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن.
- إبراهيم الكيلاني : أدباء من الجزائر.
- محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري.
- محمود قاسم : الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية.
- أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية.